نقد الأدب وبلاغته في الأندلس "
ابن شُهيد وابن بسام الشنتريني أنموذجاً

د. حسن أحمد علي حيدر
أستاذ الأدب الأندلسي المساعد
الجمهورية اليمنية جامعة تعز كلية الآداب
قسم اللغة العربية 2008م

ملخص البحث

هذه الدراسة ليست جديدة من حيث موضوعها في التراث الأدبي الأندلسي، ولكن من حيث الرؤية والتناول قد تكون كذلك، وهي في جانب منها استدراكات على رسالة الدكتوراه للباحث. فالأندلسيون، على الرغم من تواضع ما لهم من جهود قاموا بها في ميدان النقد والبلاغة، كانوا أصحاب نظرات نافذة وعميقة في كثير من الآراء التي أدلوا بها في آثارهم الأدبية، ويأتي في مقدمتهم ابن شهيد الأندلسي.

وجهودهم هذه تصب فيما نبحث عنه من تأصيل لنظرية نقدية وبلاغية تشهد لهم بالسبق والريادة، وتعزز ثقتنا في تراثنا الثقافي والحضاري، الذي نستمد منه أسباب النهوض، ونستلهم مقومات الانطلاق من جديد.

وابن شهيد وابن بسام، على الرغم من قلة ما وصل إلينا من آثارهما، وبخاصة أولهما، فقد أسهما وغيرهما من نقاد الأندلس بقدر وافر في الدرس النقدي والبلاغي للأدب، حيث أشاروا إلى كثير من قضاياه، وأسسوا لنظريات أدبية، أصبح لها شأن في الدراسات الأدبية الحديثة، كما سنرى.

مقدمة:

البحث الذي بين أيدينا يحاول أن يسلط الضوء على قضية أثارها الدارسون منذ زمن، وكانوا - ولا يزالون - مختلفين فيها، هذه القضية تتمحور في السؤال الآتي : هل تراثنا الأدبي القديم يشتمل أو يتضمن معطيات نظرت للأدب والنقد، تمثلت في آراء ونظريات أدبية ونقدية يعتد بها، كما هو الحال في الآراء والنظريات الأدبية والنقدية الحديثة المستمدة من الغرب أو الشرق؟ وللإجابة على هذا السؤال أسارع فأقول : لقد بُسط القول في هذه القضية وأفاض الدارسون فيها منذ عهد ليس بقريب، وانتهى البحث عند بعضهم إلى أن هناك آراء للقدماء في النقد والأدب والبلاغة تتفق مع الطروحات الحديثة مضموناً وتختلف شكلاً. وهذا البحث - الذي بين أيدينا - يعد امتداداً لهذا الرأي، وحلقة في سلسلة تناولت هذا الجانب من جهود الأدباء والنقاد القدماء المشارقة، وردت فيها إشارات متناثرة إلى جهود الأدباء والنقاد الأندلسيين، لكنها بحاجة إلى مزيد من البحث والدرس، وبخاصة تلك الآراء التي تميزوا بها، وكان لها اهتمام كبير

عند غيرهم من المنظرين للأدب والنقد المعاصرين. وهذا لا يعني أن التراث الأندلسي لم يعن به الدارسون المحدثون، ولكنه لم يشبع بالتحليل والمقارنة، كما حدث مع صنوه المشرقي.

وأزعم أني أسهم في هذا الجانب بجهد متواضع، له صلة بالدرس النقدي والبلاغي الأندلسي، فتحدثت عن : وظيفة النقد بمعناه العام الشامل الذي يؤسس لنظرية نقدية، تتعامل مع العمل الأدبي على أنه نص يتألف من مقومات عديدة، تتضافر معاً على إخراجه، ويتأثر بعضها ببعض، وليس نصاً معزولاً عن منتجه ومحيطه، وجعلت ذلك تمهيداً للحديث عن نقد الأدب وبلاغته عند الأندلسيين.

مشكلة البحث

جرت العادة عند الدارسين في أعمالهم البحثية وفي مختلف حقول المعرفة الإشارة إلى دوافع البحث وأهميته وأهدافه؛ ليأخذ البحث الصبغة العلمية، فلا يكون مجرد كلام يقال، فأشير إلى أن هذا البحث يأتي ضمن جهود دءوبة ومتواصلة من قبل الدارسين، تدرس التراث القديم وتفتش في أعماقه، لكشف ما يحتوي عليه هذا التراث من كنوز ودرر ترسب في أعماقه، وتنتظر من يخرجها إلى النور، إنصافاً لتلك الجهود واعترافاً لأصحابها بالفضل من جهة، واعتزازاً بتراثنا العربي وحضارتنا الإسلامية من جهة أخرى، وهذا البحث المتواضع يصب في هذا الإطار، حيث يمم الباحث وجهه شطر التراث الأندلسي؛ لإبراز ما للأندلسيين من دور حيوي في مجال الدرس النقدي والبلاغي في النصف الأول من وجودهم العربي هناك، وقد تم التركيز على علمين اثنين من أعلامهم الأدبية والنقدية هما: ابن شهيد وابن بسام الشنتريني، حيث سيعرض لأهم آرائهما وانجازاتهما في نقد الأدب ووجوه بلاغته، ليس بهدف عرضها وتعدادها، فذلك ذائع مستفيض، ولكن بهدف الإشارة إلى السبق المعرفي والدور الريادي لأمتنا العربية والإسلامية، في العلوم الإنسانية عامة والعلوم الأدبية خاصة، من خلال المقارنة العلمية بين الآراء الحديثة والقديمة حول بعض قضايا الأدب ودراسته. علماً بأنه لا يزال هناك كثير لمن يريد أن يفتش وينقب في تراثنا الغني بإسهامات القدماء من أبناء أمتنا في مختلف حقول المعرفة .

أساس فكرة البحث

الأساس الذي ينطلق منه هذا البحث هو نظرة الباحث إلى نقد الأدب على أنه إكسير الحياة الأدبية, وطاقتها المتجددة والمتفاعلة مع نتاجاتها المختلفة والمتنوعة، وهو بهذا المعنى العام الشامل يعد خلقاً آخر للأدب إن لم يكن وجهه الإبداعي الآخر.

وهذه النقطة ليست جديدة, بل هي قديمة؛ أكد عليها دارسون معاصرون, وهذا البحث حلقة أخرى في سلسلة أبحاث معاصرة، تناولت هذا الموضوع من وجهة نظر أدباء الأندلس ونقاده.

فقد لوحظ أن معظم الدراسات الحديثة، المهتمة بهذا الدرس النقدي والبلاغي عند القدماء، قد جعلت وجهتها أدباء المشرق ونقاده للبحث عن نظرية نقدية وبلاغية للأدب العربي

تؤصل لنظرية عربية قديمة قطعت شوطاً لا بأس به في مضمار اهتمام القدماء بالدرس الأدبي والبلاغي والنقدي؛ لإثبات أسبقية قدماء العرب في هذا الجانب, ودحض المزاعم التي تبخس القدماء حقهم وتنكر إحراز أي تقدم لهم في هذا الشأن.

نقد الأدب أم النقد الأدبي ؟

يقولون: لا مشاحة في الاصطلاح, ونحن نعلم أن تحديد المصطلح يتوقف عليه معرفة مفهوم المصطلح وأبعاده وحدوده، وأن أي لبس في المصطلح ينشأ عنه لبس في موضوع ذلك المصطلح ومدلولاته, وعليه فأي المصطلحين أكثر دلالة وتلاؤماً على الأعمال الأدبية الإنشائية وغير الإنشائية، مصطلح النقد الأدبي أو مصطلح نقد الأدب؟

فنقول: للأدب معنى خاص, ويقصد به الأدب الإنشائي الخالص, وهو الكلام الفني الممتع الصادر عن المشاعر والعواطف، ومعنى عام، وهو المحتوي على معارف إنسانية . والأدب بهذا المعنى ليس قصيدة عاطفية أو قصة كتبت بأسلوب ساحر وجذاب فحسب, وإنما هو إلى جانب ذلك تاريخ واجتماع وأخلاق وفلسفة ورؤية وتأمل في الحياة والأحياء[1]، قيل: شعراً أو نثراً.

والأدب بهذا الشمول وهذا العموم لا يمكن أن يكون وصفاً للنقد, فيقال عنه, وحالته هذه, النقد الأدبي؛ لأن هذا الوصف سوف يقيد النقد بمهمة معينة، ويحصر الأدب في نوع معين منه، وليس الأدب كله, فتكون مهمة النقد لا تتجاوز حدود ما تتذوقه الحاسة الفنية للتعبير الجميل، الذي هو الأدب الإنشائي أو الكلام الفني الممتع[2].

والنقد للأدب ليس البحث عن صورة استعارية، أو تعبير جميل، أو ملمح فني، أو إتقان هنا أو إخفاق هناك، في جزئية معينة من جزئيات التعبير الأدبي, ولكن النقد للأدب أوسع وأكبر وأشمل من هذه النظرات الجزئية الضيقة, فهو كل ما يفهمه قارئ النصوص الأدبية, وما يعلق في ذهنه منها حسناً أو قبيحاً, وهو تلك القراءات المتنوعة والمتعددة, وهو تلك النصوص المنبثقة من نصوص, هو كل ما تحتمله النصوص وتحمله، وتحيى به وتنمو, تحليلاً وتفسيراً وتأويلاً وشرحاً، على نحو يتناسب ومعطيات العمل الأدبي، من غير تعسف أو إكراه قد يخرجه عن وجوهه الممكنة.

ونحن عندما نتوسع في حدود هذا المصطلح فإننا نعطي هذا المصطلح فضاءات أوسع ومسافات أبعد, بحيث لا نحصره في زاوية الحديث عن الكلام الممتع والتعبير الفني الجميل, الذي هو جانب من جوانب كثيرة، من الممكن أن يصول فيها النقد ويجول. فقراءات النقد للأعمال الأدبية المختلفة تتنوع وتتعدد حسب الرؤية والثقافة والفهم، وحسب موضوع العمل الأدبي وغرضه, فهناك عمل أدبي يحتاج إلى دراسة نقدية فنية، وآخر إلى دراسة تاريخية، وآخر إلى دراسة اجتماعية أو نفسية, وهناك أعمال أدبية تحتاج لكي نفهمها إلى مجموع هذه الدراسات, كل ذلك لا يمكن أن يتأتى من خلال مصطلح النقد الأدبي؛ لأن النقد ليس أدبيًا فحسب، بل هو أيضاً أخلاقي واجتماعي وسياسي ونفسي وغير ذلك.

---

[1] ينظر : النقد والدراسة الأدبية، حلمي مرزوق، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،الإسكندرية،ط1، 2004م، ص76.

[2] أصول النقد الأدبي، أحمد الشائب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 10، 2002م، ص43.

فمصطلح النقد الموصوف بالأدب لا يستغرق الاتجاهات النقدية الأخرى للأدب, وسنضطر إلى القول بمصطلح النقد الأخلاقي والاجتماعي والنفسي, وكل وصف من هذه الأوصاف قد يحمل إذا جردناه من السياق على أنه وصف للأوضاع الاجتماعية والسياسية والأخلاقية, فنحن بذلك نكون قد أطلقنا النقد على شيء بعيد عن الأدب.

فقد يفهم من النقد السياسي - مثلاً - على أنه نقد لوضع من قبل المعارضة لحكومة معينة عبر جريدة أو برلمان أو خطبة لدوافع سياسية وانتخابية أو نحو ذلك, ولكن حين يكون الموضوع السياسي في قالبه الأدبي, فإن حديثنا عنه سيكون نقداً لهذا الموضوع الأدبي ذي الموضوع السياسي, ونقيس على ذلك الموضوعات الاجتماعية والأخلاقية وغيرها.

فمصطلح النقد الأدبي يعني أن النقد مشتمل على صفات أدبية, والأدبية تعني مجموعة من عناصر الأدب الفنية التي اشتمل عليها هذا الأدب, والتي تتمثل في البراعة التعبيرية. وبذلك نكون قد حشرنا النقد في زاوية ضيقة, وهي الجانب الشكلي والجمالي فحسب, وهذا يتعامل مع الأدب الإنشائي, وأدبنا العربي ليس أدباً إنشائياً فقط, بل هو أدب يحتمل كثيراً من قضايا المجتمع وهمومه وتطلعاته وأحواله المختلفة, التي تعد سجلاً وديواناً لأمم غابرة وأمم حاضرة, من الممكن الوقوف عليها والإفادة منها, حتى لا تكون نظرتنا إلى الأدب نظرة جزئية تقتصر على البعد الجمالي فحسب, الذي ننشد منه المتعة والتسلية والطرب واللهو, وإزجاء الوقت والفراغ.

إن النقد بالمعنى الشمولي ليس تمييز الحسن من الرديء والقبيح من الجميل في الأعمال الأدبية فحسب, وليس مفاضلة بين النصوص بعضها عن بعض فحسب, ولكنه يتجاوز ذلك إلى وظائف أخرى تتناول جميع الأعمال الأدبية وتهتم بها, من خلال القراءة التحليلية والاجتماعية والنفسية والأخلاقية...

فالأدب - بذلك - أيًا كان نوعه سيكون في محك النقد, وسيتم تناوله وفقاً لموضوعه وغرضه, فقد يكون إنشائيًا، وقد يكون اجتماعيًا، وقد يكون فلسفيًا، وقد يكون أيدلوجيًا... فكل نص مشتمل على أي من الموضوعات السابقة هو أدب، وكل قراءة له من أي نوع كانت هي نقد.

فكلمة أدب فيها خصوص من جهة, وعموم وخصوص من جهة أخرى, فالخصوص في الكلمة عندما تكون نعتاً للنقد, فيقال النقد الأدبي، والعموم والخصوص عندما تطلق مضافة, فيقال نقد الأدب الأخلاقي مثلاً، فإذا أطلقت نعتاً تخصصت, وصارت تدل على البعد الجمالي, وإذا أطلقت مضافة تعممت وصارت تشتمل على كل أنواع الأدب وأغراضه المختلفة، وقد تحتفظ بخصوصيتها إلى جانب ذلك. فعندما نقول " نقد الأدب " لسنا مضطرين بأن نصف النقد بعد ذلك إن كان جمالياً أو أخلاقياً أو سياسياً، لأن اتجاه الدراسة هو الذي سيحدد ذلك. لكن على العكس من ذلك لو قلنا " النقد الأدبي " فإننا سنضطر إلى تحديد اتجاه الدراسة إن كانت جمالية أو أخلاقية أو ... ونقول النقد الأدبي الجمالي أو السياسي أو الأخلاقي ...، وسيدخل المصطلح عندئذ في إشكالات كثيرة.

ولعل القدماء, وهم في معظمهم جماليون في نظرتهم النقدية[1], قد تنبهوا إلى هذا الجانب, فلم نجد عندهم ما يسمى بمصطلح النقد الأدبي, وعبروا عن ذلك بقولهم: نقد الشعر, ونقد النثر, وهما عنوانا كتابين منسوبين إلى قدامة بن جعفر, الأخير منهما كانت نسبته إليه خطأ, وهو لابن وهب واسمه " البرهان في وجوه البيان "، وسمى ابن رشيق كتابه الأدبي والنقدي والبلاغي "العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده" وسمى ابن جبارة علي بن إسماعيل كتابه "نظم الدر في نقد الشعر" وسمى أسامة بن منقذ كتابه "البديع في نقد الشعر".

إن مصطلح نقد الأدب أعم في الدلالة من النقد الأدبي لاشتماله على أنواع النقد المختلفة, فهناك نقد الأدب السياسي, ونقد الأدب الأخلاقي, ونقد الأدب الاجتماعي وهكذا، ومن غير هذا سيظل هناك إشكال في المصطلح.

والذي دفع بهذا الرأي هو أن مصطلح نقد الأدب من الممكن أن يحل محل مصطلح عصري لا يتناسب مع مصطلح النقد الأدبي وهذا المصطلح هو ما يعرف بقراءة الأدب وقراءة النص, والقراءة الأولى والقراءة الثانية. ونحن نعلم أن هذه المصطلحات الجديدة تعني التقييم والتقويم للأدب من وجهة نظر دراسة معينة أو من وجهة نظر منهج معين, وهو وصف ملائم لما يقوم به القارئ للنص أياً كان ذلك القارئ، وأيًا كان نوع تلك القراءة واتجاهها.

والنقد بهذه الصفة الشاملة الجامعة سيستوعب ما يعرف بالأدب الوصفي الذي يعد النقد جزءاً منه, وكذلك تاريخ الأدب, حيث يصنف الدارسون الأدب الوصفي إلى نقد أدبي وتاريخ أدب, وهو أمر يخرج تاريخ الأدب من دائرة النقد خروجاً قسرياً؛ وتاريخ الأدب لا يخرج عن دائرة النقد بمعناه الواسع. فالمؤرخ الحصيف والمحقق الدقيق والموازن والمحلل والشارح لن يخرج, وهذا حاله, من دائرة العمل النقدي, وسيكون المؤرخ ناقداً للأدب بهذه الشروط. فالأديب أو المؤرخ حين يكتب الأدب, ينبغي ألا يكتب الأدب أشعاراً وأخباراً ووقائع وحوادث، كتابة الناسخ الناقل الراوي من غير تدخل منه بالشرح والتحليل والموازنة والتعليل, أو بتر الأدب عن أخباره وملابساته وقائليه والعوامل المؤثرة فيه.

والمؤرخ الناجح أو الكاتب المحترف للأدب حين يعرض الأدب مؤرخاً له فإنه سوف يقوم بالشرح والموازنة والتحليل والتعليل, فيتخذ من القصائد والخطب والرسائل والقصص موضوعاً لآرائه الراضية أو الساخطة, المؤيدة أو الرافضة, وبذلك سيكون مؤرخاً وناقداً لا محالة. وموضوع النقد كما يقول برونتير: "هو الحكم على الآثار الأدبية وتصنيفها وتفسيرها"[2].

إن هناك دعوات لدراسة الأدب كما تدرس سائر العلوم الأخرى, فيكون له قواعد وأصول تحكمه يطلق عليها علم الأدب, وهذه القواعد والأصول تبنى على أساس من العلوم الإنسانية, تستعين بها ولا تذوب فيها, بحيث تراعى فيها خاصية موضوع الدراسة المعالج، الذي ليس هو اللغة, ولا المجتمع, ولا النفس الإنسانية, وهذه الدعوات تنص على الآتي: "إذا رفضنا علماً للأدب يطرح الأدب لغة مستقلة بذاتها تولد نماذجها الخاصة؛ فإننا نرى أن لا مناص لنا من دراسة علمية

---

[1] ينظر : النقد والدراسة الأدبية, ص 75.

[2] النقد الأدبي والعلوم الإنسانية, تأليف جان لوي كاباس, ترجمة فهد عكام, دار الفكر, دمشق, ط1, 1982م, ص9.

للنصوص الأدبية... , هذه الدراسة العلمية تتحقق بالضرورة بالالتجاء إلى طرائق الدراسة، التي سنستمر على تسميتها (نقداً) لفقدان ما هو أفضل من هذه التسمية؛ لأنها إذا ما كانت تمييزاً وإيضاحاً للشبكات التي تؤلف النص, فإنها اختيار أيضاً بوساطة النص للنماذج التأويلية التي تقترحها العلوم الإنسانية"[1].

إن نقد الأدب بمعناه الشمولي, ليس الحديث عن أديب أحسن أو أخفق, أو الحديث عن صورة جمالية أبدعها الشاعر في هذا الموضوع, وصورة قبيحة لم يوفق فيها في موضع آخر, فحسب, ولكنه "وسيلة لبيان خواص الأدب في عصر من العصور, يوازن بين الأدب في هذا العصر وبينه في آخر، ثم يعود باحثاً وراء الأسباب التي طبعت الأدب بهذه الطوابع, فيقف وقفات طويلة عند البيئة بأوسع معانيها فيدرس المكان من حيث طبيعته ومناظره وأجواؤه وحوادثه المطردة والطارئة, ثم يدرس الجنس وخواصه الموروثه والطريفة, ويحدد الفترة الزمانية وما تحقق فيها من شعور عقلي واجتماعي وثقافي خاص, ولا ينسى الدرجة الفنية ذات الأثر في الذوق والمواهب, وهكذا يحلم بجوانب الحياة وعناصرها في مكان ما وفي عصر خاص, فإذا انتهى من ذلك أو من هذه الأسباب العامة التي تتصل بالأدب فتتوفر في موضوعه وعناصره عاد فوقف عند الشعراء والكتاب فدرس سيرهم وشخصياتهم محتالاً لذلك بعدة وسائل منها آثارهم الأدبية نفسها, وبذلك يكون قد أحاط بكل ما يؤثر في الأدب من عوامل سياسية واجتماعية ودينية وشخصية, فيجمعها ويوازن بينها ويتبنى ما يكون من تشابه أو تطابق, ثم ينسقها في فصول علمية, تكون هي الأسس الأولى لتاريخ الأدب"[2]. ومهمة الناقد ـ كما يقول ت. س. إليوت ـ : شرح الأعمال الأدبية، وتصحيح الذوق، ووسيلة الناقد في ذلك أداتان رئيسيتان، هما : التحليل والمقارنة"[3].

وقد أوردنا هذه الآراء للتأكيد على ثلاثة أشياء:

1- أن نقد الأدب يبحث في اتجاهين : الأول جمالي، ويمكن تسميته بـ" النقد الأدبي " ، والثاني لا يقف عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى دراسة الأدب من جميع جوانبه، والاستعانة عليه بكل ما يضيء نصوصه ويستجليها، ويثري قضاياه ويغنيها.

2- أن ما يقوم به المؤرخ من أعمال ـ شرحاً وتعليلاً ومحاورة وأحكاماً ... ـ حيال الأدب تسمى نقداً, وأن هذه الأعمال إلى جانب كونها نقداً، تعد تاريخاً للأدب أيضاً، وهو ما يعني أن مؤرخ الأدب ناقد له، والعكس صحيح، بالشروط التي ذكرت.

3- أن هذه الأمور التي تطلب من الناقد والمؤرخ قد رأينا ناقداً ومؤرخاً أندلسيًا هو ابن بسام الشنتريني، صاحب كتاب الذخيرة, قد قام بها خير قيام. كما سنرى ذلك في الجزء الأخير من هذا البحث.

---

[1] النقد الأدبي والعلوم الإنسانية, ص129.

[2] أصول النقد الأدبي, أحمد الشايب مكتبة النهضة الفكرية, القاهرة. ط10,2002م, ص53.

[3] ينظر : النقد الموضوعي، سمير سرحان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990م، ص 10.

وأخيراً نقول : إن النقد علم يعيش على حساب غيره من العلوم، فإن أراد تمحيص الأساليب اعتمد على علم البلاغة، وإذا شغل نفسه بمكنون اللاشعور ودلالته على المشاعر - مثلاً - احتاج إلى علم النفس، وإذا احتاج إلى معرفة بواعث النص وملابساته والظروف المحيطة به لجأ إلى علم التاريخ[1]، وهكذا.

بعد ذلك الذي قدمنا من حديث عن نقد الأدب نضع هذا السؤال. هل كان للأندلسيين هذه النظرة المعاصرة للأدب, وهل كانوا على درجة كبيرة من الوعي في رؤيتهم للأدب ومعالجتهم له؟

هذا ما سنحاول إثباته فيما وصل إلينا من جهود نقدية لابن شهيد وابن بسام الأندلسيين اللذين أزعم بأنهما حريان بهذه المنزلة التي يحاول هذا البحث إحلالهما إياها.

ومما يجب ذكره في هذا المقام أن هذين العلمين قد حظيا بدراسات كثيرة من قبل الباحثين, أشاروا فيها إلى مكانتهما النقدية وآرائهما الأدبية التي بثها ابن بسام الشنتريني في ذخيرته. لكن هذه الدراسات اكتفت برصد هذه الجهود في ذلك العصر لهذين الناقدين وغيرهما من نقاد الأندلس، من غير توظيف ومقارنة للتأكيد على حق هذه الجهود في السبق المبكر والتفرد المتميز في نظرتهم إلى كثير من قضايا الأدب، مما يعد إنجازاً أدبيًا وثقافيًا يحمد لهم. ومن حقهم علينا بيان تلك الجهود وتبيانها، والإقرار لهم بتلك النظرات الفذة والرؤى الحصيفة التي نرى المعاصرين يكررونها منسوبة إلى غيرهم, أو ينادون بها على أنها إنجازات غربية, بحسن نية أحياناً وبسوء نية أحايين أخرى.

جهود ابن شهيد وابن بسام النقدية :

نبدأ هذا الجزء من هذا البحث بالحديث عن الجهود النقدية، ونختمه بالحديث عن الجهود البلاغية، لسبب وجيه، وهو أن النقد للأدب - والشعر خاصة - أسبق مولداً في تاريخنا الأدبي من البلاغة، التي ترعرعت في أحضان النقد، وبرزت بعد ذلك كعلم له أصوله وقواعده.

لقد أثار ابن شهيد وابن بسام كثيراً من قضايا الأدب ومسائل النقد, مثل علاقة الأدب بتاريخه وبيئته, والسرقات الأدبية, والمعارضات الشعرية, وعلاقة الإبداع بالصفاء النفسي والروحانية, وأثر الزمان والمكان على العمل الأدبي, ووظيفة الأدب وأدبيته, والموازنة بين الأعمال الأدبية, وتفسيرها وتحليلها والحكم عليها وغير ذلك, وسوف يتم التركيز هنا على أهم تلك الآراء وأكثرها حيوية، ومقارنتها بآراء حديثة, أشارت إليها بشكل أو بآخر؛ لنرى أن ما نقرأه على أنه جديد مبتكر، هو في الواقع قديم مستهلك، قد فطن له نقادنا القدماء بصورة أو بأخرى.

ونبدأ برأي ابن بسام الشنتريني , الذي يذهب فيه إلى ضرورة تبني الإتجاه التاريخي في دراسة الأدب ونقده , فأكد على ذلك نصاً وطبقه منهجاً , سار عليه في كتابه الموسوم بالذخيرة, ويعد ابن بسام في هذا الشأن مؤسس المدرسة التاريخية وواضع لبناتها الأولى, فقد أشار إلى

[1] ينظر : النقد والدراسة الأدبية, ص 73.

وجود علاقة متينة بين الأدب (الشعر والنثر) وتاريخه, وألح على ربطه بسياقه التاريخي والاجتماعي, ليسهل فهمه وتفسيره, لأن دراسة الأدب بمعزل عن ظروفه وملابساته التي تلبس بها وتمخض عنها, قد لا يجعل تلك الدراسة دقيقة صحيحة الأحكام, فحين راح ابن بسام يعرض لنا المادة الأدبية لم يعرضها " صماء، وإنما وضع هذه المادة في إطار تاريخي، فالتاريخ يضيء النصوص وينطقها بالدلالات الزمنية, ويمكن القاري من فهمها , والوقوف على مناسباتها , وعوامل تشكيلها[1].

حيث أشار إلى هذا الجانب بوضوح وألح عليه في ذخيرته, وأنحى على من سبقه من المؤرخين باللائمة, لأنهم لم يتنبهوا إلى ذلك فقال : " وقد وعدت في صدر هذا الكتاب بأن أتخلل أشعار الشعراء ورسائل الكتاب والوزراء بما عسى أن يتعلق بأذيالها، ويساير أفياء ظلالها، من أنباء فتن ذلك الزمان البعيد – كان – طلقها, المفرق لشمل الأمر في هذه نسقها , ونلمع بنبذ من مشهور وقائعها، ونشير بأسماء طوائف توابعها وزوابعها, الذين استظهروا على شهواتهم بجر ذيولها, وامتروا بطالاتهم من أخلاف أباطيلها, حتى شقوا عصاها, وأداروا بدائرة السوء على الجماعة رحاها, ليجمع هذا المجموع بين الشعر والخبر, جمع الروضة بين الماء والزهر, والزمان بين الأصائل والبكر, فإني رأيت أكثر ما ذكر الثعالبي من ذلك في " يتيمته " محذوفاً من أخبار قائليه, مبتوراً من الأسباب التي وصلت به, وقيلت فيه, فأمل قارئ كتابه منحاه, وأحوجه إلى طلب ما أغفله من ذلك في سواه"[2].

أليس هذا عين ما قاله تين – مؤسس هذه المدرسة – كما يقولون – بأن الأدب : كالثمرة سواء بسواء, فأنت لا تعرف الثمرة حتى تعرف الشجرة التي أثمرتها, والتربة التي غذتها, والماء الذي رواها، وما يتصل بالتربة والماء من الأملاح والمعادن التي دخلت في مكوناتها, متى عرفت ذلك وتفحصته وحللته, عرفت الثمرة وفحصتها وحالتها"[3].

وقد علق جولفيل, وهو مؤرخ فرنسي, على منهج تين قائلاً : لقد حمل تين النقاد بهذا النهج على أن يدرسوا الشعب الذي ينتمي إليه الأديب، أو الإنسان أياً كان هذا الإنسان, وأن يصفوا الإقليم الذي أنشأه والمدينة التي حيي فيها، وأهل المدينة الذين خالطهم وعاشرهم, ما دام الناقد - وهذا واجبه عند تين - يعد مؤرخاً، أو بمعنى أخر تلميذاً لميشيليه إلى حد ماء"[4].

فما الفرق بين ما قاله هؤلاء, وبين ما قاله ابن بسام سوى الصياغة فقط ؟!

وقد راح ابن بسام يطبق منهجه التاريخي في ذخيرته أدق تطبيق, ومن ذلك هذا المثال : حيث تنبه إلى هذا الجانب, وهو يترجم للشاعر حسان بن البصيصي, حين توقف عند شعر له, فيه شيء من المغالطات التاريخية, التي لم يتحقق منها الشاعر, وذلك في قوله :

وما الحروب ومثلي أن يشاهدها وإنما أنا حسان وأنت علي

---

[1] – مصادر إبن بسام الشنتريني في كتابه الذخيرة , مصطفى إبراهيم حسين , مجلة الدارة , السعودية , العدد الرابع , 1987م , ص138.

[2] – الذخيرة : ق1 م1 , ص32 .

[3] – النقد والدراسة الأدبية : ص82م.

[4] – النقد الأدبي والدراسة الأدبية : ص82 , وميشيلية : من أوائل المؤرخين في فرنساء .

فيعلق ابن بسام على ما ورد في البيت من خبر تاريخي استقاه الشاعر من مصادر غير موثوق بها - بقوله : "وأظن حساناً هذا لم يكن له علم بالسير، ولا تصرف بعلم الخبر، وقد رأيت جماعة من أهل الأدب ينسبون حسان بن ثابت، رحمه الله، إلى الجبن، ويخرجونه من أهل الضرب والطعن، يحتجون في ذلك بقعوده عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في مغازيه وسراياه، وينشدون له في ذلك شعراً، أظنهم نحلوه إياه، وهي هذه الأبيات على رواية بعض الرواة :

أيها الفارس المشيح المطير إن قلبي من السلاح يطير
ليس لي قوة على رهج الخيـ ـل إذا ثور الغبار مثيـر
أنا في ذا وعند ذاك بليد ولبيب في غيره نحريـر

ولا أمتري أنها منحولة إليه، ومفتعلة عليه، وبلغ من حججهم على ذلك حديثه في شأن اليهودي يوم الأحزاب المطيف بالأطم الذي كان النبي، صلى الله عليه وسلم، أحرز فيه النساء والأبناء، وإن حساناً حض صفية بنت عبد المطلب على قتله وأخذ سلاحه، ويقولون لم تكن به قوة على سلبه، فضلاً عن حربه، وذهب عليهم أن حساناً، رحمه الله، كان قد أصيب في بعض حروبهم في الجاهلية، فقطع أكحله، وفي ذلك يقول :

وخان قراع يدي الأكحل

ومن أدل شيء على ذلك أنه هاجى في الجاهلية والإسلام أكثر من ثمانين شاعراً، لم يصفه أحد بالجبن ولا عيره به، ولم يكن شيء يتعايرون به أشد. ولحسان أيام مشهورة، ومواطن في الحروب مذكورة، وكان ممن له كنيتان في السلم والحرب، كما كان الأبطال تفعل على عهده، كان يكنى في السلم بأبي الوليد، وفي الحرب بأبي نعامة"[1].

فابن بسام، كما نلاحظ قد استنكر على الشاعر المصيصي هذا الشعر المبني على أخبار تاريخية غير صحيحة، راح يصوب هذا الخطأ بالرجوع إلى البراهين النقلية والعقلية. ومما يؤكد ما ذهب إليه ابن بسام أيضاً أن حسان بن ثابت، رضي الله عنه، كما تذكر المصادر، قال شعراً عير به

الحارث بن هشام بن المغيرة، بسب فراره من الحرب، كان قد شهد بدراً مشركاً قبل أن يسلم، ولو كان حسان جباناً كما ذكروا لما عير غيره بما هو فيه، وكان مما قاله حسان :

إن كنت كاذبة بما حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

فاعتذر الحارث عن فراره بما قال الأصمعي : أنه لم يسمع أحسن من اعتذاره في الفرار[2].

ومما كان للأندلسيين فيه سبق وريادة حديث ابن شهيد عن الطبع والصنعة، حيث يذهب إلى أن الشعر الجيد هو الشعر العفوي البسيط المطبوع، فيذكر أمثلة شعرية توافرت لها أسباب

---

[1] - الذخيرة : ق2 م 1 ، ص440 – 441 .

[2] - ينظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة / إبن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الجزيري (630هـ) ، تحقيق محمد إبراهيم البناو محمد أحمد عاشور ، ومحمود عبد الوهاب فايد ، مكتبة الشعب ، ط1 ، 1970م ، 420/1.

الجمال بسبب صدورها عن طبع شفاف ونفس مستولية على جسم صاحبها, فيقول : فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتي منه في حسن النظام صور رائعة من الكلام, تملأ القلوب وتشعف النفوس, فإذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده, ولجمال تركيبها أساً لم تعرفه, وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير حسن, كقول امريء القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

فإن هذه الديباجة إذا تطلبت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده. وكقول أبي نواس :

طرحتم من الترحال ذكراً فغمنا فلو قد شخصتم صبح الموت بعضنا

ثم قال فيها :

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواك , لعل الفضل يجمع بيننا

فهذا من الكلام الغث, واللفظ الرث الذي لو رامه حمار الكساح لأدركه, ولكن له من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى "[1].

وقد وصف بيت أمريء القيس السابق بأنه : نهاية لا تتهيأ مجاوزتها, بل لا تتمكن مقاربتها, لأنه ذكر تخيل نارها من المدينة, وهو بالشام, فساقه الشوق إليها من أجل ذلك[2].

فابن شهيد يؤسس بهذه الآراء لمذهب يرى أن الشعر الجيد " لا تستطيعه إلا النفوس الوحشية الغفل القوية, وأن الشعر لا يحتاج إلى معرفة كبيرة بالحياة ونظر فيها, وأن الجهل بها أكثر مواتاة للشاعر, فأجود الشعر أشده سذاجة"[3]. وراح يدافع عن آرائه هذه، مؤكداً على أن الإبداع الشعري لا يتأتي من كثرة الحفظ، ولا من بطون الكتب، ولا من قبل المؤدبين, وإنما هو " من تعليم الله تعالى, حيث قال : " الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان " (الرحمن 1-4) ، ليس من شعر يفسر, ولا أرض تكسر, هيهات, حتى يكون مساقك عذباً وكلامك رطباً, ونفسك من نفسك وقليبك من قلبك, وحتى تتناول الوضيع فترفعه, والرفيع فتضعه, والقبيح فتحسنه"[4].

البلاغة وجهود الأندلسيين فيها :

لقد كان أهل النظر في الأدب العربي القدماء – قبل ابن المعتز العباسي (ت 296هـ) – يفهمون البلاغة على أنها مجموعة من الأدوات الجمالية التي يتحقق بها أدبية النص, وقد وردت هذه الأدوات مبثوثة في ملاحظاتهم النقدية التي أسست لظهور علم البلاغة, الذي أصبح نظاماً يحتكم إليه أصحاب فن القول, ويقيسون به حسنه ورديئه, ويروزون به قرائح الشعراء ونتاجات الأدباء. والأدب الذي كانوا يبحثون فيه عن توافر هذه الشروط هو الأدب البلاغي ليس غير, حيث يراقبون عمل الأديب ويعرضونه على البلاغة كما فهموها, ويفاضلون بين أعمال الأدباء على أساس من ذلك, وذوقهم هو رائدهم الأول.

---

[1] – نفسه : ق1 م1 , ص232 .

[2] – النقد الأدبي الحديث : ص187 .

[3] – غواية التراث : جابر عصفور , كتاب العربي , العدد 62 , الكويت , ط1 , 2005م , ص149 .

[4] – الذخيرة : ق1م1 , ص274 .

وظلت لديهم هذه النظرة الفطرية، المعتمدة على الذوق الخاص أو العام، التي تبلورت فيما بعد إلى علم البلاغة، حتى أهل عصر البديعيين، الذين خطوا بها خطوة إلى الأمام، واختزلوها في مصطلح , كان فيما بعد أحد أقسامها، هو مصطلح البديع، الذي نسبوا إليه, فكانت لديهم بهذا المصطلح أبعد مدى وأكثر إتساعاً, تحت تأثير كثير من العوامل الثقافية والمعرفية, منذ ابن المعتز, الذي ألف كتاباً في البلاغة سماه " كتاب البديع" وأشار فيه إلى كثير من مباحث علوم البلاغة التي عرفت قبله وزاد عليها, واستمرت هذه النظرية البديعية مرادفة للبلاغة حتى كان عصر التقسيم والتفريع للبلاغة على يد السكاكي (ت626هـ).

وكانت النظرة النقدية لديهم لا تتجاوز الحكم الجزئي على بلاغة هذه المفردة أو ذلك التركيب، حتى كان عبد القاهر الجرجاني (ت474هـ), الذي انفصلت في عصره البلاغة عن النقد, وخطا بمباحث البلاغة خطوة فذة, كان النبع منها على بعد ضربة معول فلم يضر بها , كما يقول سيد قطب.

وهكذا كانت المباحث البلاغية والنظرات النقدية عند المشارقة تعالج الجانب البلاغي في النص الأدبي, تتسطح هنا وتتعمق هناك, وتضيق هنا وتتسع هناك, باذلين قصارى جهودهم إسهاماً منهم في تكوين ثقافة بلاغية ورؤية نقدية تهديها إلى المعرفة الإنسانية, وتشارك بها في صنع وعي بالجمال الإبداعي في مجال الكلمة الأنيقة المعبرة.

وإذا يممنا وجوهنا شطر الأندلسيين فسنجد مصطلح البلاغة قد تردد كثيراً في كتبهم الأدبية والنقدية، واصفين به الأديب أو نتاجه الأدبي، في أثناء تراجمهم للأدباء, كون البلاغة فناً لا يستقيم العمل الأدبي بدونه, بل لا يسمى ذلك العمل عملاً أدبياً أصلاً من غيره.

وكانت عنايتهم بها من منطلق عنايتهم بجمال الأسلوب، وأناقة التعبير وروعة التصوير, شعراً كان ذلك أو نثراً. وقيمة الأديب عندهم تكون بقدر ما يتقن منها, فلا تكاد ترجمة لأديب مبدع تخلو من نعته بالبلاغة أو مرادفاتها: البيان والبديع والمعاني, من غير أي تفريق بين هذه الأقسام, كما سنلاحظ.

فأبو عامر بن شهيد – كما يقول ابن حيان – كان "يبلغ المعنى, ولا يطيل سفر الكلام, وإذا تأملته ولسنه، وكيف يجر في البلاغة رسنه, قلت : عبد الحميد في أوانه, والجاحظ في زمانه"[1].

ويترجم الحميدي لعدد كبير من أدباء القرن الرابع الهجري, ويصفهم بالبراعة في ميدان البلاغة, فعبد الرحمن بن هشام كان: في غاية الأدب والبلاغة[2], ومحمد بن سليمان الرعيني, كان متقدماً في الأدب والبلاغة والشعر[3]، وكان محمد بن سعيد التاكرني "من أهل الأدب والبلاغة

---

[1] – الذخيرة : في محاسن أهل الجزيرة : أبن بسام / أبو الحسن علي الشنتريني (ت 542هـ) , تحقيق إحسان عباس , دار الثقافة , بيروت , ط1 , ق1م1 , ص192.

[2] – جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس : الحميدي / أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي (ت488هـ) , الدار المصرية للتأليف والترجمة , 1966م , ص26 .

[3] – نفسه : ص57.

والشعر"[1], ومحمد بن الطايف " من أهل الأدب والبلاغة"[2], وكان لابن مرة طريقة في البلاغة[3], وأحمد بن برد ذا حظ وافر في الأدب والبلاغة والشعر"[4], وكان لأحمد بن سعيد في البلاغة يد قوية"[5], وكان أبو عامر بن شهيد " من العلماء بالأدب ومعاني الشعر وأقسام البلاغة"[6], وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعبها مقدار, ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل"[7].

ويحدثنا المقري عن بلاغة الأدباء الأندلسيين ذكوراً وإناثاً, ويذكر عدداً منهم, ثم يقول : فقد رأيت أن أذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتي لهن اليد الطولى في البلاغة, كي يعلم أن البلاغة في أهل الأندلس كالغريزة لهم حتى في نسائهم وصبيانهم"[8].

ويذكر ابن بسام البلاغة كثيراً في ذخيرته , قاصداً بها ما ذكرنا من جمال التعبير وحسن الصياغة وروعة التصوير. ومن ذلك ثناؤه على بعض أدباء القيروان, حيث يقول : فقد طلعت منها نجوم الكتاب, ورمت أقاصي البلاد، بمثل ذرى الأطواد, وسمعنا بزهر الآداب, وأنموذج الشعر اللباب, وبفلان وفلان، من كل فارس ميدان, وبحر بلاغة وبيان"[9].

ويورد ابن بسام قول الشاعر التهامي :

لو لم يكن ريقها خمراً لما نطقت بلؤلؤ من حباب الثغر منتظم

ويعلق عليه بقوله : "ولكن التهامي ولد معنى حسناً، وجر هاهنا للبلاغة رسناً"[10].

فنلاحظ من هذا العرض أن البلاغة، بوصفها عنصراً حيوياً، لا تكاد تفارق الأدب عموماً والشعر خصوصاً عند الأندلسيين، فهي ملازمة له ومقترنة به. هذا جانب, والجانب الثاني أن الأندلسيين لم يفهموا البلاغة على أنها أجزاء منفصلة بعضها عن بعض : معاني, وبيان, وبديع, فقد عالجوها في تراجمهم للأدباء حتى عصر ابن بسام على أنها : وصف لكل كلام جميل تتوافر فيه الأدوات البلاغية وعناصرها الفنية, من تشبيه واستعارة، وجناس وطباق، وكناية وتورية، وإيجاز وغير ذلك.

وقد سبق القول بأن البلاغة في نظر القدماء المشارقة كانت ترادف مصطلح البديع , وها هو ذا ابن بسام يجعل مصطلح البديع – من منظور شمولي – مرادفاً لمصطلح البلاغة, حيث يقول : "وعلى ذلك فقد وعدت أن ألمح في هذا المجموع بلمح من ذكر البديع، وأن أمهد جانباً من أسبابه، وأشرح جملاً في أسمائه وألقابه .. لكن ربما ألممت ببعض القول, بين ذكر أجريه,

---

[1] – نفسه : ص60 .
[2] – نفسه : ص62.
[3] – نفسه : ص63.
[4] – نفسه : ص119.
[5] – نفسه : ص126.
[6] – نفسه : ص133 .
[7] – نفسه : ص133 .
[8] – نفح الطب : المقري التلمساني / أحمد بن محمد (ت 1041هـ) , شرح وضبط مريم قاسم طويل , دار الكتب العلمية , بيروت , لبنان , ط1 , 1995م , 403/5 .
[9] – الذخيرة : ق 4 م2 , ص597.
[10] – الذخيرة : ق4 م2 , ص541.

ووجه عذر أريه, لاسيما أنواع البديع، ذي المحاسن، الذي هو قيم الأشعار وقوامها, وبه يعرف تفاضلها وتباينها"[1].

فهذا نص صريح يذكر فيه ابن بسام البديع, ويقصد به ـ قطعاً ـ أقسام البلاغة المختلفة, ويفهمه كما فهمه ابن المعتز والجاحظ وقدامه بن جعفر وأبو هلال العسكري وغيرهم.

إن البديع الذي يقصده ابن بسام ليس البديع الذي عرفه السكاكي والقزويني على أنه جَناس وطباق وسجع .. وغير ذلك من أنواع البديع المبسوطة في كتب البلاغيين المتأخرين, ولكن البديع الذي جعله محور دراسته في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, هو بديع ابن المعتز وبديع الجاحظ كما أشرنا. وقد كانت دراسته للسرقات في كتابه الذخيرة, على أساس من هذا الفهم, حيث أشار في دراسته إلى أنواع البديع : من استعارة وتشبيه وتقسيم وجناس, وغير ذلك مما تشتمل عليه البلاغة.

وكذلك فهم ابن شهيد البديع – قبل ابن بسام – عندما أورد هذا المصطلح ناعتاً به أسلوب ابن دراج القسطلي , حيث يقول: "والفرق بين أبي عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام, شديد أسر الكلام, ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب, وما تراه من حوكه للكلام, وملكه لأحرار الألفاظ, وسعة صدره وجيشة بحره, وصحة قدرته على البديع, وطول طلقه في الوصف, وبغيته للمعنى وترديده, وتلاعبه به وتكريره, وراحته بما يتعب الناس, وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس"[2].

هذا الفهم للبلاغة يجعلنا نقول : إن الأندلسيين قد نظروا إلى البلاغة نظرة جمالية، فهي تعني لديهم الافتتان في الصياغة، والطلاوة في التعبير، والروعة في التصوير, وكل ما من شأنه إحداث الإحساس بالمتعة، والشعور باللذة والجمال، وكذلك فعل المشارقة من قبل. وهذه النظرة تشبه نظرتنا الحديثة إلى البلاغة التي استبدلنا مصطلح الصورة بها, فإعجابهم بالومضة الشعرية، واللفتة البيانية الظريفة, واللمحة الفنية البديعة, وإشادتهم بها من غير تجزيئ أو تقسيم أو تفتيت لعناصرها الجمالية، يجعلنا أمام نظرة كلية للبلاغة (الصورة) التي يتخيلها الأديب ويقدمها في أسلوب بياني مؤثر, بالمعنى الحديث لها, وليس بمعنى متأخري المشارقة منذ السكاكي والعصور الذي تليه.

وهناك نماذج كثيرة في التراجم الأندليسية مثل : جذوة المقتبس للحميدي، وبغية الملتمس للضبي، وقلائد العقيان ومطمح الأنفس لابن خاقان، والمطرب لابن دحية، والمعجب للمراكشي, وغيرها, من كتب التراجم الأندلسية التي سلكت هذا المسلك في النظرة البلاغية الكلية إلى العمل الأدبي .

وسوف نقصر الأمثلة هنا على كتاب " الذخيرة " حيث يورد ابن بسام قصيدة لعبادة بن ماء السماء ويستوقفه فيها هذان البيتان :

ختلته سراً والقبائل درع تحميه لكن المنايا حسر

---

[1] – الذخيرة : ق1 م1 , ص17 .

[2] – نفسه : ق1 م 1 , ص61.

ولو انها رامته جهراً لانثنت والبيض تقرع والقنا تنكسر

فيعلق عليهما بقوله : " قوله : " ختلته سراً " .. البيت مع الذي يليه معنى قد طوى ونشر, وكسف راؤه مما ابتذل, وأسن ماؤه مما عل به ونهل, ومنه قول المهلبي .. وقول الأسدي .. وأخذ هذا المعنى عبد الكريم التميمي .. وقد أخذ أيضاً هذا المعنى بعض أهل وقتنا .. ولله در صريع الغواني فإنه أخذ عليهم ثنايا هذا البديع في هذا المعنى, وإن كان بينهم بعد كما ترى, حيث يقول :

الم تعجب له أن المنايا فتكن به وهن له جنود"[1].

فنظرة ابن بسام إلى البديع , تعني دقة الوصف، والإصابة في المعنى، والومضة الشعرية وإشراقها, والالتفاتة الذهنية الفذة, والطرافة والغرابة في الصورة والغوص وراء المعنى.

وهو الموقف نفسه الذي رأيناه عند ابن شهيد الذي دعا إلى ضرورة المراطلة بين البديع والاعتدال في استخدامه[2], ووصفه لابن دراج بأنه كان يحسن التصرف في البديع[3], وأن مسلم بن الوليد لم يفضل الشعراء إلا لأنه كان يزاوج بين البديع وطريقة العرب[4], وهما بذلك يدعوان إلى ضرورة إيجاد نوع من التوازن في العمل الأدبي , بما يحقق الدلالة البلاغية ولا يحجبها، فلا تكون الدلالة واضحة كل الوضوح فتقترب من السطحية, ولا غامضة تشتمل على علاقات يرفضها العقل[5].

ويعلق ابن بسام على قول عبادة بن ماء السماء :

كأنما شيبها شارب أمسكها في كفه سرمدا

بقوله : وهذا البيت اخترع معناه"[6]. فما الذي يقصده ابن بسام بقوله: " اخترع معناه"؟ إنه لا يقصد المعنى الفلسفي أو الفكري للشاعر, لأنه مطروق ومكرور, وإنما يقصد المعنى الشعري , والمعنى الشعري هو " الذي يصح فيه الإبداع والاختراع ؛ لأن الناس لن تخترع معنى جديداً في الحياة , وإنما تخترع هيئة جديدة للتعبير [7], تجعلنا نحس ذلك المعنى بدرجات تتفاوت حسب درجة المؤثر الذي يتمثل في الهيئة أو الشكل أو الصورة التي يتخيلها الشاعر ويقدمها لنا في تعبيره المفضل .

وكثيراً ما ترد تعابير مثل : " الإبداع , والاختراع , عند ابن بسام , كقوله – مثنياً على شعر ابن عمار – :

---

[1] – نفسه : ق1 م 1 , ص 489 .
[2] – نفسه : ق1 م 1 , ص311 .
[3] – نفسه : ص61.
[4] – نفسه : ص238.
[5] – ينظر : المرايا المقعرة , عبد العزيز حموده , عالم المعرفة , العدد 272 , 2001م , الكويت , 402.
[6] – الذخيرة : ق1 م , ص474.
[7] – النقد والدراسة الأدبية : ص127 .

وكيف لا يرغب في شعره , ويتنافس فيما ينفث من سحره , وهو يضرب في أنواع الإبداع بأعلى السهام , ويأخذ من التوليد والاختراع بأوفر الأقسام[1], وابن الرومي بحر الإبداع وعذبة لسان الاختراع [2], وهذا من الاختراع البديع [3], وغير ذلك مما هو مبسوط في ذخيرته .

وهذه التعابير قد رددها كثيراً ابن رشيق القيرواني في عمدته, ويقصد بالاختراع : خلق المعاني التي لم يسبق إليها والإتيان بما لم يكن منها قط، والإبداع : إتيان الشاعر بالمعنى المستطرف, والذي لم تجر العادة بمثله[4]. ومما لا شك فيه أن ابن بسام قد اطلع على عمدة ابن رشيق وتأثر ببعض ما ورد فيه من تعابير.

ويقف ابن بسام وقفه طويلة مع نماذج نثرية وشعرية لأبي العلاء المعري ذات بعد وجداني وإنساني , فيقول " ومن حر الكلام وسري النظام, مما يتعلق بوصف الحمام, قول أبي العلاء المعري, وأنا أثبت هنا زيادة بعد إجادة جلة نثر ونظام في وصف الحمام, أخذ فيه بثوب الحسن من طرفيه, واشتمل على رداء البديع من حاشيته[5].

ومن ذلك قوله :

غير مجد في ملتي واعتقادي ... نوح باك ولا ترنم شـــاد

أبكت تلكم الحمامة أم غنـ ... ـت على فرع غصنها المياد

أبنات الهديل أسعدن أوعد ... ـن قليل العزاء بالإسعـــاد

إيه لله دركن فأنتن اللوا ... تي يحسن حفـظ الوداد

ما نسيتن هالكاً في الأوان الحال أودى من قبل هلك إياد

بيد أني لا أرتضي ما فعلتنـــــن وأطواقكن في الأجياد [6]

فهل البديع الذي أشار إليه ابن بسام هنا هو المحسنات البديعية , التي عرفها المشارقة المتأخرون, كما يذهب إلى ذلك ابن خلدون ؟[7] كلا, ولكن البديع الذي أراده ابن بسام هنا هو ما اشتمل عليه هذا الأثر الأدبي من عاطفة قوية تضرب في أعماق الضمير الإنساني, وهي عاطفة الحزن التي تهز وجداننا وتحرك مشاعرنا, كلما وقفنا على هذا النغم الموسيقي الحزين، وهذا الإيقاع الجنائزي المهيب, في إجلال وخشوع.

---

[1] - نفسه , ق2 م1 , ص369.

[2] - نفسه : ق4م2 , ص511.

[3] - نفسه : ق1م2 , ص784.

[4] - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : إبن رشيق القيرواني / أبو الحسن (ت456هـ) قدم له وشرحه وفهرسه صلاح الدين الهواري , دار مكتبة الهلال , بيروت , ط1 , 1996م , 1 / 419.

[5] - نفسه : ق3 م1 , ص348 .

[6] - نفسه : ق3 م1 , ص350 .

[7] - ينظر : تاريخ ابن خلدون / عبد الرحمن بن خلدون , (ت808هـ) , دار الكتب العلمية , بيروت , لبنان , ط2 , 1992م , 641/1 .

من كل ما تقدم نستطيع القول إن مصطلح البلاغة ومصطلح البديع قد أدارهما ابن بسام وغيره من الأندلسيين في مدوناتهم, وقد كانا عندهم وجهين لعملة واحدة, ويعنون بهما " كل صورة فنية ذات منحى فني فيه جدة أو فيه ما يثير الإعجاب"[1].

تلك كانت طائفة من آراء ابن شهيد وابن بسام الأندلسيين في النقد والبلاغة قمت بتحليلها ومقارنتها بآراء حديثة ومعاصرة, وقد اتضح من خلال ما قمت به نظرة الأندلسيين إلى البلاغة, حيث كانت نظرتهم إليها على أنها مجموع من الأدوات المتآزرة والمتساندة في إنجاح العمل الأدبي , وكانت نظرة كلية, ترادف النظرية البلاغية الحديثة, والتي لا تختلف عنها إلا في الاصطلاح فقط, كذلك لاحظنا سبقاً للأندلسيين في بعض القضايا النقدية وقد أشرنا إليها, وإني لأرجو أن أكون قد قدمت جهداً متواضعاً أسهم به في خدمة تراثنا القديم الذي يعد مصدر فخر واعتزاز لأمتنا العربية التي ترى في ذلك التراث عزاء لها فيما أصابها من تقهقر وتراجع, جعلها تمضي على استحياء بين الأمم, لعل ذلك يكون حافزاً لها للعمل من جديد وللأخذ بالأسباب التي بها صلح أول هذه الأمة .

المراجع:

1) أسد الغابة في معرفة الصحابة : ابن الأثير / أبو الحسن علي بن محمد الجزيري (630هـ), تحقيق محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور, ومحمود عبد الوهاب فايد, مكتبة الشعب, ط1, 1970م.
2) أصول النقد الأدبي, أحمد الشايب, مكتبة النهضة المصرية, القاهرة, ط10, 2002م. .
3) تاريخ ابن خلدون / عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ), دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط2, 1992م.
4) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس : الحميدي / أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي (ت488هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة, 1966م.
5) الذخيرة : في محاسن أهل الجزيرة : ابن بسام / أبو الحسن على الشنتريني (.542هـ), تحقيق إحسان عباس, دار الثقافة, بيروت, ط1, ق1م1.
6) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني / أبو الحسن (ت456هـ) قدم له وشرحه وفهرسه صلاح الدين الهواري, دار مكتبة الهلال, بيروت, ط1, 1996م.
7) غواية التراث, جابر عصفور, كتاب العربي, العدد 62, الكويت, ط1, 2005م
8) المذهب البديعي في الشعر ونقده : رجاء عيد , منشأة المعارف , الإسكندرية .
9) المرايا المقعرة , عبد العزيز حمودة, عالم المعرفة, العدد 272, 2001م, الكويت, 402.
10) مصادر ابن بسام الشنتريني في كتابه الذخيرة " مصطفى إبراهيم حسين, مجلة الدارة, السعودية, العدد الرابع, 1987م.
11) نفح الطيب : المقري, التلمساني / أحمد بن محمد (ت 1041هـ), شرح وضبط مريم قاسم طويل, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط1, 1995م, 5/ 304.
12) النقد الأدبي والعلوم الإنسانية : تأليف جان لوي كاباس, ترجمة فهد عكام, دار الفكر, دمشق, ط1, 1982م.
13) النقد الموضوعي : سمير سرحان, الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة 1990م.
14) النقد والدراسة الأدبية, حلمي مرزوق, دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر, الإسكندرية , ط1, 2004م.

1 - المذهب البديعي في الشعر ونقده : رجاء عيد , منشأة المعارف , الإسكندرية , ص25 .